
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الأغذية وأصناف التاريخ *

فرناند بروديل

ترجمة : محمد حبيدة*

ثمة فائدة في التأكيد منذ البداية على مكانة قطاع تاريخ الأغذية ضمن مجالات البحث والتفسير التاريخيين.فهو يظهر بنفس الانتظام الرتيب الذي يميز القطاعات الاخرى.وهو أيضا قابل في غالب الأحيان،إن لم يكن على الدوام،لاستيعاب نفس الفرضيات والتأويلات والطروحات بالنظر للميادين المألوفة،الأكثر كلاسيكية والأكثر دراسة.فعناصره تحملها نفس التيارات التي تجري بعناصر التاريخ الأشد نبلا.

النباتات واللحوم ووصفات الطبيخ كلها ثروات ثقافية .

هذا ما لقنتنا إياه الانتروبولوجيا منذ زمن طويل.أما المؤرخون فيعرفون ذلك ويرددونه بكثير أو قليل من الاقتناع.لقد شكل التبادل المستمر للثروات الثقافية قاعدة بين الحضارات الراسخة والحضارات شبه الراسخة.هذا ما يفسر الاسفار والتنقلات.فالكل يتحرك : الرجال طبعا،الحيوانات والنباتات الأليفة،التقنيات،أساليب التفكير والتصور والفعل،جزئيات اللباس والسكن،وحتى وصفات الطبيخ الأكثر بساطة.سيأتي يوم نفتح فيه هذا الملف الضخم الخاص بالنباتات المغذية والمتنقلة.هذه

BRAUDEL (Fernand),Alimentation et catégories de l'histoire,Annales,ESC,1961,pp.723-728,repris in « pour une histoire de l'alimentation »,recueil de travaux présentés par J.J.HEMARDINQUER,cahier des Annales,28,A.Colin,1970,pp.15-19.

** أستاذ باحث- بجامعة بن طفيل – القنيطرة

الرحلات المتعددة تمنحنا طبعا إمكانية الاختيار.فإما أن نتحدث عن الرحلة البطيئة لقصب السكر أو للسكر حول العالم،وهي الرحلة التي استغرقت خمسة وعشرين قرنا على الأقل،وإما عن الرحلة السريعة،من باب المقارنة،لشجرة البن أو البن عبر العالم(...)لكن،وبالنظر إلى تحركات الرجال والنباتات والاغذية هاته،لا شيء يضاهي،بالنسبة للمبرهن أو المؤرخ المستعجل،المصير الهائل للعالم الجديد الذي تأورب باستمرار .

وتحسن بعد رحلات كولومب.للاقتناع بذلك يكفي الرجوع إلى كتاب ماريانو كارسير حول مشاكل التاثيرات الزراعية المتبادلة بين العالم الجديد واسبانيا(1)،الذي أشار إلى وجوده بيير شوني في "الحوليات"فقد يكون الدليل الأكثر غنى وحيوية،إن لم يكن الأوضح على الاطلاق.فهل ندافع عن قضية مكسوبة سلفا ؟.

الحدث والظرفية.

في الواقع،يتفكك تاريخ التغذية بانتظام كأي تاريخ آخر إلى مقاطع زمنية عريضة السمك إلى حد ما.فالموائد الأميرية أو العمومية،والتي غالبا ما تسجلها الاخباريات،ليست في نهاية الأمر سوى أحداث،ربما ذات دلالات مهمة،لكن محدودة بالتأكيد.بالامس،مثلا،واجهني جينو لوزاطو بالأطباق الفاخرة لبلاط أمراء أوربينو،فيما اكدت على الكفاف الاعتيادي لأطعمة القرن السادس عشر في البحر الأبيض المتوسط وحتى في ايطاليا.شيء من الخمر،من حين لآخر،خبز،نقانق بولونيا،ذلك هو طعام الفقير،إذا ما سلمنا بتفاصيل "أخباربانديلو"،الشاهد الجيد؟في هذا الاتجاه،من الحكمة التنقيب في المقام الأول عن تاريخ أغلبي.إن موائد الاثرياء وحتى حاشيتهم،وهو ما نعرفه مسبقا،تحمل شواهد حول حقائق استثنائية ذات أمد قصير(...)

بالتأكيد ثمة ظرفيات قصيرة وأخرى طويلة.قصيرة،إذا صدقت ملاحظات معاصري العقدين أو الثلاث عقود الأولى من القرن السادس عشر حول وفرة الطعام والشراب في فرنسا على وجه الخصوص.في هذا السياق اتحمل مسؤوليتي في الوثوق بما كتبه السيد غوبيرفيل سنة 1560 :" زمن أبي كان الأكل وافرا.كنا نأكل اللحم يوميا ونغوص في الخمر وكأنه الماء.أما اليوم فتغير كل شيء،فقد غلت الأثمان...وأصبح طعام الفلاحين الأكثر رخاء أحط بكثير من مثيله لدى خدم الأمس."

وهنالك ظرفيات طويلة.فبخصوص الاستبدالات الغذائية أكد هنري هوسير،وبإلحاح،أن سكر الشمندر تطلب أكثر من مائة سنة ليتوطن في أوربا والعالم.ثم إن قدر الذرة والبطاطس في اوربا لم يكن بالتأكيد أسرع من ذلك.أيضا،في اليابان خلال القرن الثامن عشر،ومع النمو الديموغرافي المعروف،كان من الضروري حرث الأراضي العالية الموجودة فوق مرزات السهول.لكن في الوقت الذي ظلت فيه هذه الأخيرة تؤدي ضرائب عينية،دفعت الحقول الجديدة ما توجب عليها تجاه السيد نقدا.أراضي

جديدة،زراعات جديدة : هكذا دخلت،خلال مرحلة كيوهو (1716-1735)،البطاطس العذبة التي أصبحت من الأطعمة الأساسية للفلاحين الفقراء.أما الرز فقد ظل حكرا على الأغنياءوالمدن(2).

نموذج آخرجيد حول الظرفية الطويلة،بل والطويلة جدا،تمنحه إيانا،من غير اندهال، مواد الهند وأندونيسيا والفليبين،التي حركت لقرون من الزمن التجارة الأوربية البعيدة.كلنا نعلم هيمنة كماليات البهار والتوابل على البحر المتوسط والغرب لعدة قرون.إنها الكماليات التي تفسر ثراء ومجد البندقية وجنوة وفيما بعد هالة البرتغال.

والحال أنه مع القرن الثامن عشر تقريبا بدأ تغير كبير في الذوق.وهو ما تؤكده بيانات الشركة الهولندية للهند الشرقية.ذلك ما أشار إليه وفسره ملاحظوا القرن الثامن عشر على طريقتهم الخاصة .أما المؤرخون فلديهم ما يختارونه لتحليله بدورهم.

فهل نصدق ما ورد في الكتاب المعروف لموريلاند (3)؟حقا إن التوابل استعملت في تصبير اللحوم خلال فصول الشتاء.لكن القرن الثامن عشر،في الفصول ذاتها،وفر للناس حصة منتظمة من اللحم الطري،مما عمل على تراجعها وساهم بالتالي في ارتقاء الأطباق الحلوة نتيجة الانتشار المتزايد للسكر (...) هكذا تركت التوابل مكانها لأذواق أخرى غريبة،ليس فقط السكر،بل أيضا الشاي والبن والتبغ...والحقيقة أن لكل عصر مخدراته،أساليب لهوه،بل "مسكناته".

ومهما يكن،يقدم لنا البهار والمجموعة التقليدية للتوابل نموذجا أكيدا حول الأمد الطويل،حول وفاء الأذواق،حول ثبات العادات والمبادلات الذخيلة.لا عجب حقا في أن نجد أيضا في تاريخ كل حياة مادية مدا وجزرا،المميزان الحقيقيان لكل مجتمع في التاريخ.

فالاطعمة بعضها مع بعض،والأشربة أيضا،سواء السائلة منها أو الصلبة،تتنازع،تتعارض،تتضاف،تستبدل بعضها البعض.فهل يجوز الحديث،على النحو الذي يقوم به زملاؤنا الجغرافيون وعلماء النبات،عن تجمعات غذائية كما هو الشأن بخصوص التجمعات النباتية! هذه كتلك تتباين حسب المواقع والأزمنة.لكن من يكتب هذا التاريخ المعقد بالدقة المطلوبة:ليس فقط تاريخ الخبز الذي نتوفر حوله على أدبيات،أو تاريخ الخمر الذي يعرفنا عنه كتاب كبير(4) بل تاريخ متزامن لهذه التجمعات الغذائية البطيئة التكون والانحلال أيضا.لكنه انحلال قد يستغرق قرونا وقد يحصل من يوم لآخر.فهل نرجح أفضلية كلمة "تجمعات" على صيغة "أنظمة غذائية"؟عموما يتعلق الأمر باتحاد علينا إدراكه في عناصره وأمده،كما في علائقه مع اتحادات أخرى.وهو أمر بديهي.

على اننا إذا أردنا بلوغ الأمد الطويل والغوص فيه،علينا ربما التحلي بمزيد من الصبر والتقدم ببعض الخطوات،أي الاحتكاك بنقاشات وأبحاث الجغرافيين والانثروبولوجيين وأخصائيي ما قبل التاريخ.هكذا تبدو أهمية مجموعة من الدراسات،كالكتب القيمة لماكسيمليان صور حول "أسس الجغرافيا البشرية"(5) والتي تفتقد مع الأسف لفهرس كامل يسهل استعمال محتوياته الغنية.أيضا إعادة قراءة الانتاج الفريد لفيدال دولابلاش حول "مبادئ الجغرافيا البشرية (6) وكذلك مقالته الجوهرية حول"أنماط الحياة"(7) والتي لم ينقطع لوسيان فيفر عن قراءتها طول حياته.أو أيضا الرجوع إلى الوصية المذهلة،إذا صح القول،التي تركها إيميل فيرت حول تقنيات الحرث(8) والتي تظل،رغم قابليتها للنقاش،حصيلة عظيمة بالنظر لكثافة المعارف المعروضة والتي تغطي دفعة واحدة،وباستمرار،زمنا طويلا،من الوقت الحاضر إلى العصر النيوليتي،مانحة إيانا،فضلا عن ذلك،فرصة العودة إلى الأدب الألماني الرحب.كتاب كهذا يكاد يحررنا من الثقل الدقيق للزمن.لأن التحرر من الزمن القصير وحتى الطويل،على النحو الذي يشتغل به الانثروبولوجيون وصديقنا وزميلنا كلود ليفي ستروس،هو الذي يمكن من الحديث عن الثورة الزراعية للنيوليتيين كواقع حي على الدوام،على نفس الايقاع الذي يجعلنا نحن المؤرخون،سجناء التقليد والدروس الملقنة،نتحدث عن الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية كوقائع حية،مختلطة بحياتنا الراهنة.نعم،إنه الانسياق مع الرغبة في الخروج من الزمن القصير والثقب الضيق اللذان يجعلان المؤرخ يدرك المظاهر أكثر مما يستوعب حقائق الماضي.بمعنى آخر،أي نشوة في تغيير شباكنا لتغيير صيدنا! .

هكذا تظهر فائدة إعادة تصفح كتاب موريزيو.تلك التحفة التي صدرت أول الأمر بالبولندية سنة 1926 ثم بالفرنسية عام 1932(9) كتاب قديم وتقليدي لكن درسه يظل بالنسبة إلينا نحن المؤرخون مقبولا ونافعا وضروريا.لقد قدم لنا التطور الهائل والمتعدد والبطئ جدا لأغذية البشر منذ ما قبل التاريخ الأكثر بعدا إلى اليوم.ذلك هو التأثير المستمر لزمن بعيد وبطيء جدا:فخلال هذه الازمنة الغابرة لم يحصل الانسان على الطعام من العالم النباتي المحيط به إلا عن طريق الالتقاط.لقد كان الهدف الأول لموريزيو إذا هو العثور على النباتات التي استعملها الانسان إبان هذه الأزمنة ووضعها في جداول كاملة ما أمكن،انطلاقا من ملاحظة الشعوب البدائية،من المعلومات التي يمنحها ما قبل التاريخ،من بقايا الممارسات القديمة،من العودة المميزة للمجاعات،بما فيها تلك التي ضربت أوربا الوسطى إبان الحرب العالمية الأولى.

هذه الدراسة المفصلة التي خضعت باستمرار للمراجعة والتنقيح،تابعت أيضا،خطوة بعد أخرى،مراحل تقدم الزراعة من استعمال المجرفة إلى المحراث،ودققت الاحتياجات الغذائية من الحساءات العذبة أو الحادة إلى العصائد،إلى الفطائر،إلى الأخباز،أي كل المسائل التي تشكل اليوم جزءا من معارفنا

المتداولة.لكن ليس في نيتي تقديم ملخص حول هذا الكتاب،بل أساسا التركيز بفضله،مرة أخرى،على النهج الأكيد للأمد الطويل.

ولنعد إلى الالتقاط،المشار إليه آنفا،إلى اللائحة الطويلة للنباتات النافعة التي ينتهي بها هذا الكتاب.فكل نبتة تطرح مجموعة من التساؤلات:

1)-هل لا تزال تستعمل إلى اليوم لدى بعض الشعوب البدائية؟

2)-هل تشغل حيزا في حقولنا الحالية:فالعديد من الأعشاب الرديئة التي كانت تنبت في المزارع والحدائق والتي قدمت خدمات في السابق تعرف إهمالا اليوم؟

3)-هل يشير إليها ما قبل التاريخ؟

4)-هل تعود المجاعات الدورية بالناس إلى هذه النباتات وأطعمتها القحطية؟

فحتى سنة 1781 أشار بارمونتي،الذي أوصى كما هو معلوم باستعمال البطاطس،إلى تسعين نبتة غير مزروعة،لكن مفيدة. وعليه فإن مجاعة 1709 التي عمت أوربا كلها ومجاعة 1770 التي عصفت بإقليم الفرانش كونتي تحديدا،وفيما بعد المجاعات العامة التي اجتاحت أوربا أعوام 1816 و 1817،أو الأزمات المتكررة التي عرفتها أوربا الشرقية أكثر من جارتها في الغرب،كل هذه النوبات تمنح لدليلنا براهين متعددة تعزيزا لأطروحاته.إنها تمكنه من العثور على مجاري التاريخ القرني والألفي.مجاري مألوفة،خفية،وأحيانا جوفية،لكن في حركة دائمة.

هكذا،وبالقرب منا،بالأمس،وحتى اليوم تقريبا،يذوب الزمن ويغوص النظر لحظة في أعماق خارقة.وفي الأخير نعود مرة أخرى إلى قولة موريزيو: "في تاريخ الأطعمة...ألف سنة قد لا تحمل أي تغيير".فلا داعي للقول ختاما أن ذلك ما يجب إثباته.إن أبحاثنا لا تجري تحت شعار البرهنة الهندسية المدرسية،أو على الأقل لم تصل إلى ذلك بعد.ثم ماذا عن هذه الألفية:حقيقة الزمن الغابر والأمس،بل واليوم؟ .

الهوامش

1) - MARIANO De CARCER Y DISDIER,trasculturacion indoespanola,1956,p.235.
2) - M.TAKIZAWA?The penetration of money economy in Japan;New york,1927 p.76-77.
3) - W.H.MORELAND,From Akbar to Aurengzeb,Londres,1923,p.21.
4) - R.DION,histoire de la vigne et du vin en F RANCE DES ORIGINES AU XIX siècle,Paris,1959
5) - M.SORRE,les fondements de la geographie humaine,Paris,A;Colin,4vol,1943-1948.
6) - VIDAL DE LA BLACHE,Principes de geographie humaine,Paris,A.Colin, -1922.
7) - VIDAL DE LA BLACHE,les genres de vie,Annales de geographie,XX,1911,p.193-212et 289-304
8) - E.WERTH,Grabstock,Hacké und Pflug,Ludwigsburg,1954,435 p .
9) - A.MAURIZIO,histoire de l'alimentation végétale,Paris,Payot,1932,663 p .